آداب الطريق الصوفى

للأستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى

(٨)

وللصوفية نظرات ثاقبة فى جميع الجوانب الإجتماعية ، وتراهم يحتاطون لجميع الظروف والحوادث التى من شأنها تطرأ على المجتمع فتعكر صفو العلاقات بين الناس ، وتفصل بينهم ، وتؤدى إلى الشقاق والنزاع .

ولذلك كان لهم نظام دقيق فى إقامة الأسرة ، لأنها أول لبنة فى إقامة صرح المجتمع .

ورب الأسرة متى كان حكيما عاقلا متخلقا بالأخلاق الكريمة كفل لأسرته الحياة السعيدة . وجنبها الزلل ونأى بها عن العثار ، ووقاها شر التفرقة والنزاع ، بل وأصبح لها قدوة صالحة كريمة تهتدى بهديه ، وتسترشد برأيه ، وتستنير بحكمته .

فلا يسمحون للمريد بالزوج (بأن يكون رب أسرة) إلا بعد أن يكون صالحا للقيام بأعبائها بأن يجتاز امتحاناً دقيقاً ينتصر فيه على شهوات نفسه . ويتمكن من سياستها على النحو الذى يرضى الضمير الإنسانى الحر . وبذلك يكون لقيادة غيره ورعاية أسرته . وقد وضعوا لذلك شروطا تتلخص فيما يلى : —

ابن الطريق إما أن يكون أعزب أو متزوجاً فإن كان أعزب فعلية ألا يفكر فى الزواج إلا بعد أن يقهر دواعى نفسه ويتمكن من سياستها ، ويتغلب على شهوته ، فإنه لا يجوز له فى سلوكه أن يصرف همه عن التفكير فى غايته إلى التفكير فيما يعوقه عن الوصول إلى هذه الغاية ، وهو فى هذه الحاله يعتبر طفلا لم يبلغ مبلغ الرجال ، لا يصح أن يفكر فى الزواج إلا الرجال ، والرجال هم الذين يستطيعون القيام

بشئون الأسرة والزواج . وهذه هى الأستطاعة التى فهموها من قوله عليه الصلاة والسلام « من استطاع منكم الباءة فليتزوج » وقد تحدث الشيخ حسن رضوان فى كتابه القيم « روض القلوب المستطاب » عن هذا المعنى اقال . —

وإن يكن هذا المريد أعزبا فلا يراعى للزواج مطلبا
من كان طفلا دون مبلغ الرجال فليس كفئا للنساء فى كل حال
وحبسه عن شهوة نفساً أتم من رغبة النكاح إذ فيها الندم

إلى أن يقول : —

حتى يرى فتحا من المولى مصل إليه والكتاب يبلغ الأجل
وصار من حزب الرجال الكمل أهل الترقى فى المقام الأكمل
بحيث يعطى كل شخص حقه بل كل وقت منه ما استحقه
وأعظم اللذات لا يلهو به عن ربه ، بل صار من مطلوبه
هذا هو المعنى بقول المصطفى من استطاع حيث قام بالوفا
بل كل نص جاء فى فضل النكاح يعنى به ذا ليس إلا حيث لاح
نكاحه عبادة فى حقـــه إذ حظ نفسه انطوى فى صدقه
ونصف دينه جدير بالكمال إذا ، ورزق الروح ينحو بالوصال

أما إذا كان المريد متزوجا ، فعليه أن يراقب الله فى أسرته ، وأن يرضى بزوجته ويحاول أن يصلح من شأنها وحالها إن احتاجت إلى ذلك ، وأن يتقى الله فى أولاده فهو راع وكل راع مسئول عن رعيته ، وألا يشغله ذلك عن القيام بواجب الحق من عبادة وقربى ، بل عليه أن يقسم وقته بالحسنى ، فإن لأولاده عليه حقا ولسيدتة عليه حقا ولزوجه عليه حقا كحق الله عليه . بل مراعاة حقوق هؤلاء من حق الله الذى فرض عليه .

ولو اتبع كل رب أسرة النظام الذى سلكه الصوفية فى معاملتهم مع أسرهم لتمكنوا من أن يعيشوا فى أمن واطمئنان ، ولتغلبوا على كل ما ينتابهم من مشاكل ومضايقات ، وتجنبوا فى طريقهم النزاع والشقاق .

فكم من الصوفيه من صبر على أذى زوجته ، ولو كان غيره مكانه لشيعها إلى أهلها ومعها ألف لعنة ولعنة ، ومنهم من كانت تسيئه زوجته ويصبر على مساءتها ، ويسأل فى ذلك فيجيب : أخشى أن أطلقها فتزف إلى رجل فيتبلى بها ولا يصبر على أذاها . وهذه مثالية نادرة ليس حقيقا بها سوى الصوفية .

الصوفية يرون أن رب الأسرة هو المسئول عن رعاية حق هذه الأسرة ، فعلية أن يتحمل بثبات كل تبعاتها ، ويوفى بالتزاماتها ، ويحقق لها مطالبها المعقولة المشروعة ، وهو فى سبيل ذلك لا يضن بجهد ولا مال .

إن معظم الشقاق فى الأسرة لا ينجم فى الغالب إلا عن سوء الرعاية ، وعدم التوفيق من العائل بين مطالبة الخاصة ، ومطالب الأسرة العامة . كان ينشأ أيضاً من الإنحراف الذى يصاب به رب الأسرة فى بعض الأحيان . وضيق الصدر الذى يحول الخلافات الصغيرة إلى معارك كبيرة تنتهى بالفراق وما بعد الفراق .

والصوفية ولله الحمد بعيدون عن ذلك . ؛ لأنهم أصحاب مبدأ وخلق ، ولأنهم يراعون الله فى تصرفاتهم ، ويلتزمون الجادة فى طريقهم ، فمن أين يأتى الإنحراف واللجاج ، أو من أين يأتى سوء الرعاية والعناية ؟ . ولذلك تحيا الأسرة الصوفية دائماً فى سعادة وهناء ، بينما يتردى كثير من الأسر الأخرى المتحلله فى مهاوى الإنزلاق والرذيلة والشقاق .

ونظرة فاحصة فى كلام الشيخ حسن رضوان السابق يدلنا على مدى عناية الصوفية بالأسرة . فهو يريد من رب الأسرة أن يكون قدوة حسنة ومثلا كريماً لأسرته .

يريد منه أن يكون على صلة وثيقة بالله ، عارفاً به مؤتمراً بأمره ، منتهيا بنهيه ، حتى تنشأ أسرته كذلك . يريد منه أن يكون رجلا بمعنى الكلمة فى تصرفاته ، فلا تصدر منه تصرفات صبيانية تكون مدعاة للقيل والقال ، وبذرة فيما بعد للشقاق والعواق .

فالرجل الذى انتصر على شهوته ، وتمكن من سياسة نفسه ، وقهر كيد الشيطان ، يتمكن من سياسة أسرته ورعايتها ، وليس غريباً أن نسمع أحدهم يقول: « إنى لأعصى الله فأجد أثر هذا فى خلق زوجتى ودابتى » . . .

(يتبع)